

الفصل الثالث

الأهداف العامة للجمعيات القومية العربية

المبحث الأول:

١. الانفصال عن الدولة العثمانية واستقلال البلاد العربية
٢. قيام خلافة عربية بدلاً عن الدولة العثمانية
٣. فصل السلطة الدينية عن السلطة السياسية
٤. تحكيم الدستور

المبحث الثاني:

١. الولاء القومي مقدم على الولاء الديني
٢. تقرير مبدأ الولاء للقومية العربية
٣. نشر الأفكار الغربية النصرانية
٤. تطبيق الحكم الديمقراطي في البلاد العربية

obbeikandi.com

الفصل الثالث

الأهداف العامة للجمعيات القومية العربية

من خلال استعراض التعريف بالجمعيات القومية العربية، وبيان ظروف نشأتها في الأمة الإسلامية خلال القرن الرابع عشر الهجري، يتبين أنها نشأت أو أنشئت في البلاد العربية لأهداف معينة ومحددة، كما في بيانات بعض هذه الجمعيات أو تصريح الأعضاء المنتسبين لها، وفي هذا الفصل سوف أبين أهم أهداف الجمعيات، وهي كما يلي:

المبحث الأول:

الهدف الأول: الانفصال عن الدولة العثمانية واستقلال البلاد العربية^(١).

يكاد يكون أبرز الأهداف العامة عند الجمعيات القومية، الانفصال التام عن الدولة العثمانية، بل إن بعض الجمعيات القومية لم تؤسس إلا لهذا الهدف. إن علاقة الجمعيات القومية العربية بالدولة العثمانية وموقف الجمعيات منها، سواء في مرحلة إعلان الدستور، أم في مرحلة مشاركة الدولة العثمانية في الحرب العالمية الأولى... وغيرها من المباحث المتعلقة بهذا الموضوع سأتناوله إن شاء الله.

(١) انظر: سقوط الدولة العثمانية وأثره على الدعوة الإسلامية-مجدي عبدالمجيد الصافوري-١٦٥.

شاء الله بالدراسة والبحث في الباب الثالث، ولكن في هذا المبحث أستعرض بعض النصوص الواردة عن أعضاء الجمعيات القومية، التي تدل على أن من أهداف الجمعيات القومية العربية استقلال البلاد العربية عن سيادة وحكم الدولة العثمانية.

وقد قال محمد عزة دروزة — أحد أعضاء الجمعيات القومية العربية — عن خطة الجمعيات القومية العربية: كنا نعمل بتحفظ وحيناً بسرية في سبيل إيقاظ الروح العربية وتحريك الشعور العربي، والتذكير بأمجاد العرب والتوجيه لاستقلال العرب الذاتي أو التام بالكتابة والخطابة^(١).

ولتحقيق الانفصال عن الدولة العثمانية واستقلالية البلاد العربية، سلك أعضاء الجمعيات القومية العربية، ثلاثة محاور، وهي:

١. المطالبة بتعيين نواب من العرب في المجالس المختلفة:

بعد إسقاط السلطان عبدالحميد الثاني، تولت جمعية الاتحاد والترقي مقاليد الحكم وحددت سلطة السلطان العثماني بأعمال محددة كتعيين الصدر الأعظم وشيخ الإسلام، منح الصدر الأعظم حق اختيار الوزراء ورفع أسمائهم إلى السلطان للمصادقة عليها...^(٢) الخ وأعلن ما يسمى بالدستور^(٣) الذي حدد فيه

(١) حول الحركة العربية الحديثة - ١٩/١.

(٢) نشأة الحركة العربية الحديثة-محمد عزة دروزة-٢٣٢.

(٣) انظر: مجلة الهلال-الجزء الأول من السنة السابعة عشرة-١٣٢٦/٩/٦-ص:٦.

تنظيم للدولة بحيث لا يكون للسلطان سلطة مطلقة. وكان الذي قام بهذا الانقلاب جمعية الاتحاد والترقي والجمعيات القومية العربية.

ويصف أعضاء الجمعيات القومية العربية، تسلط جمعية الاتحاد والترقي على السلطة بقولهم: قامت جمعية الاتحاد والترقي بتقسيم الدوائر الانتخابية وفرض عدد أعضاء مجلس النواب بتخطيط لضمان الأكثرية للعنصر التركي.. وحرصوا على أن يكون المنتخبون من المنتسبين إلى جمعيتهم المتحمسين لها سواء أكانوا من الترك أم غيرهم.. وحرصوا بقدر ما أمكنهم أن يكون من نواب البلاد العربية أناس من العنصر التركي^(١).

وبالنسبة لأصحاب المناصب من العرب قبل إعلان الدستور، فيقول أعضاء الجمعيات القومية العربية: قامت جمعية الاتحاد والترقي بتنسيق موظفي (العهد البائد)، وألفوا اللجان في الآستانة وعواصم الولايات، وأسرفوا في عملية تنسيق موظفي العناصر غير التركية وبخاصة منها العرب.. وكانت لجان التنسيق كي تفرق بين التركي والعربي توضع إلى جانب اسم العربي حرف (ع) في جداول التنسيق.. ولم يبق عرب آخرون لهم من الأهمية والنفوذ من يذكر في مناصب الدولة^(٢).

(١) نشأة الحركة العربية الحديثة-٢٩٨.

(٢) مجلة المنار-مجلد ١٢، الجزء ١٢، يناير ١٩١٢، ص: ٩١٧. وانظر:

مؤلفات رفيق العظم-١٣٣

العرب والترك-توفيق برو-٩٦.

كان لهذه الإجراءات الحزبية أثر عظيم على أعضاء الجمعيات القومية العربية، ولذا طالبوا المشاركة بمجالس الدولة، فكان مما قالوه: إن المراكز التي جعلت للعرب في الوزارات المتعاقبة كانت ثانوية لا تتكافأ مع أهميتهم، وإن ما نالهم من الإجحاف في مجلس النواب والأعيان^(١) جعلهم يظنون بأن ثمة حركة ترمي إلى القضاء عليهم^(٢).

وأبرز مقاصد جمعية الإخاء العربي العثماني هو: معاونة جمعية الاتحاد والترقي في سبيل المحافظة على أحكام القانون الأساسي (الدستور) وجمع كلمة الملل المختلفة العثمانية بدون تفريق في الجنس والمذهب. وتمكين الرابطة الجامعة بينهم، وذلك لأجل خدمة الدولة العثمانية وإصلاح الشؤون المختلفة. والسعي لإعلاء شأن الأمة العربية واتخاذ جميع الوسائل والتدابير لنشر أنوار العلوم والمعارف بين أبنائها كتأسيس مدارس وطبع جرائد.. وصيانة حقوق أبناء العرب جميعاً من الغدر والاعتساف وتبليغ شكاياتهم، ومستدعياتهم إلى مراجعها الرسمية^(٣).

ومن الموضوعات التي تم مناقشتها في المؤتمر العربي الأول موضوع (حقوق العرب في المملكة العثمانية)، ومما جاء فيه غمط العرب حقهم في المجالس

(١) في بداية عهد عبد الحميد ورغبة في مشاركة الجميع في شؤون الدولة أصدر قراراً بتنظيم مجلس عمومي يكون من مجلسين أحدهما ينتخب الأهالي أعضاؤه ويسمى مجلس المبعوثان أو النواب، والآخر تعين أعضاؤه من طرف الدولة ويسمى مجلس الأعيان. وكان ذلك سنة ١٢٩٣ هـ. انظر: تاريخ الدولة العلية - ٥٩٠.

(٢) معضلة الشرق أو الأقطار العربية المحررة - خير الله خير الله - ٤٠. تعريب عارف النكدي.

(٣) انظر: ص (٥٧) من الرسالة.

المختلفة في الدولة العثمانية، وقال عبدالغني العريسي: نحن — أعضاء الجمعيات القومية (المؤتمر) — نطلب تمثيلنا فيه — المجالس — على استحقاق حفظاً لكرامتنا ومترلتنا السياسية.. ويتساءل الناس عن قلة نواب العرب في هذه المجالس مع أن عدد العرب يفوق غيرهم في هذه المملكة، فإذا عرفنا أن انتخاب النواب أصبح بين أيدي من احتكروا السلطة واستلموا الإدارة زال العجب.. وما دام أقدس حق لهذه الأمة مغموطاً وهو حق التمثيل فإننا نُعذر إذا صممنا على أن نتذرع بالوسائل التي تصون حقوقنا في هذه المجالس سواء في زيادة نوابنا أم حرية تمثيلنا^(١).

وبعد أن تبنت الجمعيات القومية العربية الدفاع عن دعوة هضم حقوق العرب، وعدم تمكينهم للمشاركة في المجالس، أو مشاركة العدد الذي لا يتناسب مع حجم أعداد العرب في الدولة العثمانية، رافق هذا الدفاع المطالبة باستقلال البلاد العربية عن الدولة العثمانية^(٢).

٢. المطالبة بالحكم اللا مركزي:

انفصال البلاد العربية عن الدولة العثمانية يعتبر مرحلة أخيرة من أهداف الجمعيات القومية العربية، وقبل الوصول إلى هذه المرحلة، مرت مطالبة الجمعيات بمرحلة الحكم اللا مركزي، وقد صرح أعضاء الجمعيات القومية العربية بهذا الترتيب، ومن ذلك قول محمد عزة دروزة: إن الجمعيات القومية

(١) المؤتمر العربي الأول -خطبة عبدالغني العريسي- ٤٥.

(٢) انظر: عن واقع بعض المجالس المشتركة بين الاترك والعرب والبعيدة عن الصبغة الإسلامية: العرب والترک-توفيق برو-٢٣٢-٢٣٨.

المُسيِّرة للحركة العربية (كانت تهدف إلى قيام كيان عربي قومي بضم جميع بلاد العرب، ويكون له استقلال ذاتي تحت تاج السلطان العثماني المشترك، ثم تطورت إلى الانفصال عن الدولة العثمانية وإنشاء مملكة عربية كبرى تشمل على أقطارهم المتعددة... وكانت هذه المطالب نتيجة للاتصالات التي جرت بين الشريف وأولاده من ناحية، والجمعيات العربية السرية التي تطورت أهدافها، وغدت مركزاً في الوحدة العربية الشاملة من ناحية أخرى^(١). ويؤكد هذا الأمر تشدد جمعية الاتحاد والترقي على الأعضاء المنتسبين للجمعية اللامركزية^(٢).

وقد اتفقت الجمعيات القومية العربية على المطالبة بالإدارة اللامركزية في السلطنة العثمانية المؤلفة من عناصر مختلفة الأجناس والأديان واللغات والعادات.. وكما كان للحزب اللامركزي تأثير في هذه الغاية، فقد كان المنتدى الأدبي أيضاً، أقوى عامل في بث الفكرة الوطنية في نفوس العرب. وبث الدعوة إلى الانفصال عن الترك وإعلان الاستقلال العربي^(٣).

٣. طلب الحماية والاستشارية من الدول الاستعمارية:

مما لا شك فيه تأثر أعضاء الجمعيات القومية العربية بالعالم النصراني، والذي كان من أسباب نشأة الجمعيات القومية العربية، وقد صرح أعضاء الجمعيات القومية العربية بهذا التأثير. وأن فكرة الانفصال عن الدولة العثمانية

(١) مختارات قومية-محمد عزة دروزة-٦٦٣-٦٦٤.

(٢) إيضاحات عن المسائل السياسية التي جرى تدقيقها بديوان الحرب العرفي المتشكل بعالية-٤٤-٦٢

(٣) مذكراتي على هامش القضية العربية-أسعد داغر-٣٦.

كانت بسبب ما حدث في العالم الأوربي من صراعات ومنازعات دينية وسياسية في ظل الحكم الإقطاعي وتسيطر عليه قوميات عديدة، نتج عن هذه الصراعات حركة قومية تستهدف التخلص من السيطرة الإمبراطورية وتحقيق الذات لكل قومية.

إن هذه النتيجة التي ظهرت في البلاد الأوربية سرت إلى الشرق بقضايا قومية مختلفة تركية وكردية وبلغارية.. عربية، وكانت تعيش هذه القوميات في نطاق الإمبراطورية التركية العثمانية ولتأثر الشرق بما حدث في العالم الأوربي فقد سعت هذه القوميات للتخلص من سيطرة هذه الإمبراطورية وتحقيق ذاتها وسلطانها^(١).

وقال عبد الحميد الزهراوي - رئيس المؤتمر العربي الأول المنعقد في باريس -: (جننا أوربا ونريد أن يجيئها كثيرون منا لتكبر عقولنا وهمنا برؤية آثار العقول والمهم، جننا أوربا ليزداد علمنا في حضارتها وأساليب اجتماعها الراقي.. إن أوربا ليست هي الغول وإنما الغول سوء الإدارة وفساد السياسة^(٢)).

فكانت هذه مواقف بعض أعضاء الجمعيات القومية العربية من البلاد المستعمرة، وتحت شعار الحرية والعدل ومناصرة المظلومين، تقدم بعض أعضاء الجمعيات القومية العربية بطلب الحماية من البلاد الاستعمارية. حيث كاتب الأعضاء النصاري في جمعية بيروت الإصلاحية فرنسا طالبين منها الحماية حيث

(١) نشأة الحركة العربية الحديثة-محمد عزة دروزة-٩-١٠ (بتصرف).

(٢) المؤتمر العربي الأول في باريس-٣٨.

أن نصارى سورية مرتبطون بفرنسا ارتباطاً نهائياً وهم لا يمكنهم إلى الأبد أن ينسوا ما يدينون به من إكبار لعظمتها وحضارتها ومن اعتراف لعطفها عليهم أيام الشدائد. إن «الأمنية الكبرى» لمسيحيي سورية هي بسط الحماية الفرنسية على سورية.. وإما الحكم الذاتي لولاية بيروت تحت حماية فرنسا ورقابتها الفعليتين..^(١).

وتناول الكواكبي حكم الكافر لبلاد المسلمين، وذلك ضمن قضية المساواة بين حكم الكافر العادل وبين حكم الظالم المسلم، وقرر أنه يحكم عليهم بالشرع والعقل بأن ملوك الأجانب أفضل منهم — أي من الأتراك — وأولى بحكم المسلمين، لأنهم أقرب للعدل ولإقامة المصالح العامة، وأقدر على إعمار البلاد وترقية العباد^(٢).

وسعيًا لطلب الحماية فقد انتدب أعضاء الجمعيات القومية العربية كامل القصاب^(٣) — عضو جمعية الفتاة — للسفر إلى مصر من أجل إبلاغ أعضاء الحركة العربية في مصر أن أعضاء الجمعيات القومية العربية لا يرضون بما دون الاستقلال التام لبلاد العرب^(٤) وذلك أثناء تهيؤ الدولة العثمانية للدخول في الحرب الأولى.

(١) بلاد الشام-وجه كوثراني-٢٧٢. وانظر: المارونية في لبنان قديماً وحديثاً-٣٦٨.

(٢) أم القرى-الكواكبي-٣٧.

(٣) انظر الترجمة رقم (٦٢).

(٤) أسرار الثورة العربية الكبرى-أمين سعيد-٣٨.

وأما عن قبول المستعمر في البلاد العربية، بحجة الاستشارة، ففي المؤتمر العربي الأول — الذي يعتبر أكبر تمثيل عربي لأعضاء الجمعيات القومية العربية — استعرض المؤتمرون موضوع الاستعانة بالأجانب فمما جاء فيه: لا نكون ناجحين بأي طريقة من طرق الإدارة إلا إذا استعنا في تنفيذها بمعارف الاختصاصيين من الأجانب يوم يكونون مستشارين لنا. وأن الاستعانة بمعارف الأجانب الاختصاصيين ليس فيها ما يخشى منه على جامعتنا السورية .

واعتبر الأعضاء أن الاستعانة بالأجانب لا يتناقض مع الحكم اللامركزي، إذ ليس في النظام اللامركزي ما يمنع الاستعانة لا بالقرب ولا بالبعيد، بل هو قائم على أساس الحاجة الداخلية لكل ولاية من الولايات... فإن برنامج حزب اللامركزية نص على أن اختيار موظفي كل ولاية من حقوق مجلس إدارة تلك الولاية.. فهو مطلق الإرادة في أمر الموظفين وفي كل الأمور الداخلية للولاية^(١). ومن خلال هذه المحاور الثلاث، أبرز أعضاء الجمعيات القومية العربية تحقيق هدفهم: استقلال البلاد العربية عن الدولة العثمانية.

الهدف الثاني: قيام خلافة عربية بدلاً عن الدولة العثمانية:

تبنت الجمعيات القومية العربية — من منطلق المبدأ القومي — قيام (خلافة) عربية، وسعى أعضاء الجمعيات القومية العربية لتحقيق هذا الهدف وخاصة بعد تزعزع الوفاق بين العرب من جهة أعضاء الجمعيات القومية، وبين الترك من جهة جمعية الاتحاد والترقي.

(١) المؤتمر العربي الأول-١٠٥

ولتحقيق هذا الهدف — بعد إسقاط السلطان عبد الحميد خاصة — اتخذ أعضاء الجمعيات القومية العربية بعض الوسائل لتبرير تحقيق هذا الهدف، ومنها:

١. اشتراط القرشية في تولي الإمامة العظمى:

لا شك أن من شروط تولي الإمامة العظمى أن يكون قرشياً، كما ثبت في السنة الصحيحة، ولكن استغل بعض أعضاء الجمعيات القومية هذا الأمر من مبدأ قومي، كما استغلت كثير من المبادئ الشرعية كالوحدة ومناصرة المظلوم والولاء .. الخ المبادئ القومية.

ولذا قرر أعضاء الجمعيات القومية العربية أن العرب هم أولى بالخلافة، وأكدوا أن الإجماع على اشتراط القرشية ثبت بالنقل والفعل ورواه ثقة المحدثين، واستدل به المتكلمون وفقهاء ومذاهب السنة كلهم، وجرى عليه العمل بتسليم الأنصار وإذعانهم لبني قريش، ثم إذعان السواد الأعظم من الأمة عدة قرون^(١).

لقد شكك أعضاء الجمعيات القومية في صحة اعتبار السلاطين العثمانيين، خلفاء للمسلمين، كما ذكر ذلك ساطع الحصري، لفقدان شرط (النسب القرشي) في سلاطين آل عثمان.. وعلى هذا سلاطين آل عثمان ليسوا خلفاء شرعيين، وأن الخلافة الإسلامية من حق العرب، فيجب أن تعود إلى العرب^(٢).

(١) الخلافة - رشيد رضا - ١٩ - مطبعة المنار - سنة ١٣١٤. وانظر: الهاشميون والثورة العربية الكبرى - ٢٥.

(٢) محاضرات في نشوء الفكرة القومية - ساطع الحصري - ١٢٢ - مركز دراسات الوحدة العربية - بيروت - الطبعة الثانية - ١٩٨٥.

ويبين أعضاء الجمعيات القومية العربية أن حكام الدولة العثمانية قد سطوا على لقب الخلافة، وأن الأتراك الأغراب القادمين من بلاد التتر أصبحوا خلفاء للسني العربي القرشي محمد^(١). واعتبرت الجمعيات القومية العربية تسمية حكام الدولة العثمانية بالخلفاء، كان لمطامح سياسية، وذلك من جانبين:

الجانب الأول: لقد كان اهتمام السلاطين العثمانيين بلقب الخلافة لمداها العظيم في العهود الأخيرة خاصة، التي تكالب فيها ملوك أوربا النصراني على الدولة، حيث كانوا يذهبون إلى أن ذلك يجعل دولتهم ذات مكانة وأهمية عند جميع المسلمين وبالتالي يجعل هؤلاء الملوك يترددون كثيراً في الإقدام على تحقيق مطامعهم في بلاد الدولة^(٢).

الجانب الثاني: إن اعتقاد المسلمين بالخلافة العثمانية، قوي نفوذ الدولة العثمانية وسهل حكمها تسهيلاً كبيراً.. وساعدت كثيراً على استسلام العرب للحكم العثماني وأخرت كثيراً نشوء فكرة القومية في البلاد العربية^(٣). وأدى في الوقت نفسه إلى تخدير شعور المسلمين العرب واستنامة جمهورهم إلى الحكم العثماني^(٤).

لقد أصبح لقب (الخلافة) كما يقول أعضاء الجمعيات القومية العربية، ذا أثر عظيم في جماهير المسلمين في بلاد الدولة وخارجها حتى صار هؤلاء خاصة

(١) الفكر العربي في عصر النهضة-البرت حوران-٣١٨.

(٢) نشأة الحركة العربية الحديثة-محمد عزة دروزة-١٨٧.

(٣) ما هي القومية-ساطع الحصري-٢٠٣.

(٤) نشأة الحركة العربية الحديثة-محمد عزة دروزة-١٨٧.

يعتبرون أنفسهم مرتبطين بالخلافة العثمانية، ويتحمسون لها، ويفرحون لما تصييه من نجاح، ويحزنون مما يلهم بها من ملمات. وكان ذلك من أسباب ما لقيته الحركة العربية والثورة العربية من تجهم في أوساط وجماهير المسلمين في بلاد الدولة وخارجها^(١).

وقبل وقوع الخلاف بين العرب والترك كانت مبادئ (جمعية) الكواكبي، قد قررت: ... أن يكون الخليفة، خليفة المسلمين، عربياً قرشياً مستجمعاً للشرائط في مكة^(٢). وقد قال بعض أعضاء الجمعيات القومية العربية: لقد كان في مطاوي الحركة العربية القومية قبل الدستور أفكار عديدة منها الدعوة إلى خلافة عربية. ومنها الدعوة إلى انفصال البلاد العربية عن الدولة العثمانية واستقلالها^(٣).

ويقول محمد عزة دروزة: حينما اشتد الخلاف بين أعضاء الجمعيات القومية العربية والترك، طمحووا إلى إعادة مجدهم القومي في ظل سلطان عربي وراية عربية^(٤).

ويعتبر أعضاء الجمعيات القومية العربية انفراد جمعية الاتحاد والترقي بالسلطة، وتسليطها الظالم على العرب خاصة ظلماً وأن هذا الظلم جرح قلوب

(١) المصدر نفسه-١٨٢.

(٢) أم القرى-الكواكبي-٢٣٤.

(٣) نشأة الحركة العربية الحديثة-محمد عزة دروزة-٢٨٩.

(٤) المصدر نفسه-١٨٧.

العرب جرحاً أليماً. فزادت كراحتهم للأتراك، وأصبحوا يتمنون زوال حكمهم ودولتهم.. وأن العرب أحق منهم بالملك والخلافة والاستقلال^(١).

وقد استعرض أعضاء الجمعيات القومية العربية حكم الدولة العثمانية لبلاد اليمن، وبينوا أن الدولة العثمانية وأهل اليمن في عراك مستمر، وقاتل دائم مع الدولة، لأسباب، من أهمها: أن الإمامة واجبة عندهم (الزيدية)^(٢) كوجوبها عند سائر المسلمين، إلا أنها متعينة في آل البيت.^{(٣)(٤)}

(١) مختارات قومية-محمد عزة دروزة-٢٠٨.

(٢) الزيدية: هي إحدى فرق الشيعة وهم أتباع زيد بن علي بن الحسين بن علي رضي الله عنهم. ساقوا الإمامة في أولاد فاطمة رضي الله عنها، ولم يجوزوا ثبوت الإمامة في غيرهم، إلا أنهم جوزوا أن يكون كل فاطمي عالم شجاع سخي. وقد تبنت الزيدية المنهج الاعتزالي في مسائل الأصول. انظر:

١. مقالات الإسلاميين-أبو الحسن الأشعري-١/١٢٩-مكتبة النهضة المصرية-الطبعة الأولى.
٢. موسوعة الملل والنحل-الشهرستاني-٦٦-مؤسسة ناصر للثقافة-الطبعة الأولى-بيروت-١٩٨١.
٣. رسائل العدل والتوحيد-يجي بن الحسين-٢/٦٨-دار الشروق-القاهرة-الطبعة الأولى-١٤٠٨هـ.
٤. الفرق بين الفرق-عبدالقاهر البغدادي-٢٢-دار المعرفة-بيروت-لبنان.

(٣) عن موقف الزيدية من الإمامة انظر:

١. رسائل العدل والتوحيد-يجي بن الحسين-٢/٦٨.
 ٢. مقالات الإسلاميين-أبو الحسن الأشعري-١/١٣٣.
 ٣. أصول الدين-عبدالقاهر البغدادي-٢٧٨.
 ٤. منهاج السنة النبوية-ابن تيمية-١/٣٥ و٧٠.
- (٤) مؤلفات رفيق العظم-١٤٥. وانظر: مختارات قومية -محمد عزة دروزة-٦٣٩-٦٤٠.

وانتصاراً للمبدأ القومي فقد اعتبر أعضاء الجمعيات القومية العربية إقامة حكم عربي زيدي في اليمن، من ملامح اليقظة أو الحركة العربية الحديثة^(١).

ولتحقيق مطلب إقامة خلافة عربية ناصر أعضاء الجمعيات القومية العربية ثورة الحسين بن علي بعد أن تم التنسيق بين أعضاء الجمعيات القومية العربية وبين فيصل بن الحسين في مسألة تحديد نفوذ البلاد العربية^(٢)، ويعتبر أعضاء الجمعيات القومية العربية مناصرة الإنجليز للثورة العربية بسبب مكانة الشريف الفريدة التي لا تعادلها مكانة شخص آخر في العالم الإسلامي، تلك المكانة التي تستمد قوتها من نسبه.. فهو حفيد النبي القيم على الأماكن المقدسة^(٣). فكانت ثورة العرب بقيادة الحسين بن علي ضد الدولة العثمانية.

وقد صرح الحسين بن علي عن الهدف من ثورته حين قال: (إن القصد الأساسي من النهضة هو وحدة العرب واستقلالهم ببلادهم المعروفة مع رعاية كافة حقوق أبنائها بلا تفریق بين نحلهم وملهمهم وحقوق كافة العالم^(٤)).

ويؤكد أعضاء الجمعيات القومية العربية على دور الجمعيات القومية العربية، في ثورة الشريف حسين، حيث قالوا: يخطئ من يظن أن الثورة العربية قامت على أكتاف الحسين بن علي الهاشمي وآله وحدهم، فالحقيقة أن تلك الثورة كانت ثورة الشعوب العربية التابعة للدولة العثمانية^(٥).

(١) نشأة الحركة العربية الحديثة-محمد عزة دروزة-٧٠.

(٢) انظر: يقظة العرب-جورج انطونيوس-٢٤٣.

(٣) المصدر نفسه-٢٢١.

(٤) القبله-السنة الثامنة-العدد ٧٣٧-بتاريخ ١٣٤٢/٤/٦.

(٥) القومية العربية-مصطفى الشهابي-١١٤.

وفيما بعد أشار فيصل إلى تأثير أعضاء الجمعيات في إعلان الثورة ، في خطاب ألقاه في دمشق يوم ٥ أيار ١٩١٩ (١٣٣٧هـ) بقوله « ولا شك أن المسؤول في الحركة الثورية العربية هو أولاً والذي ثم الحجازيون الذين قاموا بها فعلاً، أما السوريون فإنهم مسؤولون عنها معنيّاً لأنهم شوقوا الحجازيين لهذه الحركة، لهذا قام والذي بالحركة بعد أن أتيت إلى سورية وقابلت بعض الرجال»^(١).

٢. تقرير مبدأ استعمار الدولة العثمانية للبلاد العربية:

يعتبر أعضاء الجمعيات القومية العربية أن البلاد العربية قد خضعت لحكم استعمار في ظل الدولة العثمانية، فيقول أعضاء الجمعيات القومية: استولت الدولة العثمانية على معظم البلاد العربية، خلال القرن السادس عشر في مدة لا تتجاوز الأربعين عاماً.. وبعد ذلك أخذ العثمانيون يتغلغلون غرباً وشرقاً وجنوباً، ويستولون على البلاد العربية، الواحدة بعد الأخرى.. ومما يلاحظ أن استيلاء العثمانيين على البلاد العربية، إنما حدث عندما قاربت دولتهم ذروة مجدها^(٢).

كما أن إجماع الجمعيات القومية العربية، على أن أهم أهدافها مبدأ (استقلال البلاد العربية)، سواء أكان داخلياً أم استقلالاً انفصالياً تاماً، بجميع

(١) الحركة العربية - سليمان موسى - ١٣٣ وانظر: الثورة العربية الكبرى - أمين سعيد ٢/٢٦ -

(٢) البلاد العربية والدولة العثمانية - ساطع الحصري - ٧-٩.

معانيه الحقوقيّة والسياسية، دليل على أن الجمعيّات القوميّة العربيّة، تعتبر الدولة العثمانيّة مُستعمرةً البلادَ العربيّة.

الهدف الثالث: فصل السلطة الدينيّة عن السلطة السياسيّة:

لقد سبق بيان تأثر بعض أعضاء الجمعيّات القوميّة العربيّة، بمبادئ الثورة الفرنسيّة، والتي من أبرز مبادئها (فصل الدين عن الدنيا).

ويُعتبر الكواكبي أول من دعا إلى هذا الهدف من القوميّين العرب، وذلك من خلال جمعيّة أم القرى، حيث يقول: لقد كان من مبادئ جمعيّة أم القرى، كما في القضية (١٤): لا تتداخل في الشؤون السياسيّة مطلقاً فيما عدا إرشادات أو إخطارات بمسائل أصول التعليم وتعميمه^(١). حسبما تقتضيه الأخوة الدينيّة، بدون التعرض للأحوال السياسيّة قطعياً^(٢).

وعن مهام الإمام الأعظم عند الكواكبي: أن يكون عضداً عظيماً في الأمر، أما إذا أراد أن يكون هو القائم به فلا يتم قطعياً، لأن الدين شيء والمملك شيء آخر، والسلطان غير الدولة^(٣).

وبعد فصل السلطة السياسيّة عن الدين، أصّل الكواكبي قواعد ومهام الخلافة، في نظر الجمعيّة، فقال: في فقرة (١٢): الخليفة لا يتداخل في شيء من الشؤون السياسيّة والإدارية في السلطنات والإمارات قطعياً.

(١) أم القرى-الكواكبي-١٩٩٠.

(٢) المصدر نفسه-٢٠٩.

(٣) المصدر نفسه-٢٢٧-٢٢٨.

وقال في فقرة (١٤): الخليفة لا يكون تحت أمره قوة عسكرية مطلقاً، ويذكر اسمه في الخطبة قبل أسماء السلاطين..^(١)

ولمثل هذا المبدأ دَعَتِ الجمعياتُ القوميةُ العربية، حيث قررت أن تؤلف ولايةَ الحجاز الحالية مع منطقةَ المدينة المنورة إمبراطوريةً مستقلة يكون حاكمها في الوقت نفسه الخليفةَ الدينيَ لجميع المسلمين.

وظنوا بهذا الفصل أنهم قد وجدوا — كما قالوا — حلاً لصعوبة كبيرة بفصل السلطة المدنية عن السلطة الدينية في الإسلام من أجل خير الجميع الأكبر^(٢).

وكما حُصِرَتْ مهام الخليفة كذلك حُدِّدَ مكانُ إقامته، بأنه سيكون لهذه الخلافةِ الدينيةِ دولةً سياسيةً مستقلةً تماماً، تشمل ولاية الحجاز الحالية ومنطقة المدينة المنورة حتى العقبة، ويتمتع الخليفة الديني باحترام الملك ويملك سلطة روحية فعلية على كافة مسلمي الأرض... إن خليفة نبي الله يجب أن يتمتع بنفوذ أو هبة روحية بلا منازع، ويجب أن يبقى محترماً لا ينتقد طوال حياته ولا يرتقى إلى سلطته ويجب أن تبقى عظمته مستقلة.

هكذا تكون سلطته شاملة ويحكم من مقره — حكماً روحياً — جميع مسلمي العالم الذين يخفون إلى مقامات محمد المقدسة لتأدية (فريضة) الحج^(٣).

(١) المصدر نفسه - ٢٣٠.

(٢) يقظة الأمة العربية - ٣٧ - نجيب عازوري.

(٣) يقظة الأمة العربية - ٢٢٠ - نجيب عازوري.

وانطلاقاً من هذا الهدف القومي أيد أعضاء الجمعيات القومية العربية، الكتابات التي نادت بفصل الدين عن الدولة، فقد قالوا عن كتابات علي عبدالرازق^(١): إن أحسن المؤلفات التي عاجلت مسألة الخلافة معالجة علمية رزينة، هو كتاب (الإسلام وأصول الحكم).

ومما أيدوه فيه: قول علي عبدالرازق: إن الدين الإسلامي بريء من تلك الخلافة التي يتعارف عليها المسلمون. وبريء من كل ما هيأوا حولها من رغبة ورهبة، ومن عزة وقوة، والخلافة ليست في شيء من الخطط الدينية، ولا القضاء ولا غيرهما من وظائف الحكم ومراكز الدولة، وإنما تلك كلها خطط سياسية صرفة لا شأن للدين بها، فهو لم يعرفها ولم ينكرها، لا أمر بها ولا نهي لنا، لنرجع فيها إلى أحكام العقل وتجارب الأمم، وقواعد السياسة^(٢).

إن رأي عبدالرازق في فصل السلطة الدينية عن السلطة السياسية يتفق مع رأي أعضاء الجمعيات القومية العربية، حينما قالوا: لقد أصبح من الأمور المسلمة لدى جميع الدول، أن السياسة شيء والديانة شيء آخر، فلا يمكن إقامة السياسة على الديانة، بصورة من الصور^(٣).

كما واعتبرت الجمعيات القومية العربية، أن تحكيم الدين في أمور الدنيا صورة من صور خلط الدين بالدنيا، وفيه انحطاط بشأن السماويات بمزجها في

(١) انظر الترجمة رقم (٥٠).

(٢) الإسلام وأصول الحكم-علي عبدالرازق-١٠٣.

(٣) ما هي القومية-ساطع الحصري-١٩٨-١٩٩.

الأرضيات. وبهذا نجعل للاعتقادات دخلاً في الأعمال، فتؤثر اختلافاتنا الدينية في أعمالنا العالمية فينشأ عنها ذلك الشقاق الذي طالما دمّر الأمم وأتى بالحروب والويلات^(١).

فالواجب تزيهها لمقام الدين كما تعتقده الجمعيات القومية العربية أن يضعوا أديانهم جانباً في مكان مقدس محترم، ليتمكنوا من الاتحاد اتحاداً حقيقياً ومجارة تيار التمدن الأوربي الجديد لمزاحمة أهله، وإلا جرفهم جميعاً وجعلهم مسخرين لغيرهم^(٢).

وقرر أعضاء الجمعيات القومية العربية، أن الحكم الديني والحكم الاستبدادي ليسا فاسدين فحسب، بل هما غير صحيحين، فالحكم الديني يرفع بعض الناس فوق سواهم، ويستخدم السلطة لمنع نمو العقل البشري نمواً صحيحاً... والأمم تقوى بمقدار ما يعف الدين، فهذه أوربا فهي لم تصبح قوية ومتمدنة فعلاً إلا عندما حطم الإصلاح (إصلاح لوثر) والثورة الفرنسية سلطة الكليروس — سلطة رجال الكنيسة — على المجتمع، وهذا يصح أيضاً على المجتمعات الإسلامية^(٣).

ومن هذا المنطلق القومي العلماني، أصبحت عبارة (الدين لله والوطن للجميع) تنادي بها الجمعيات القومية العربية، وقد استفتح بها فيصل بن الحسين

(١) سلسلة الأعمال الكاملة - سليم البستاني - ١٢٢.

(٢) الفكر العربي في عصر النهضة - ألبرت حوراني - ٣٠٤.

(٣) المصدر السابق نفسه - ٢٩٩ - ٣٠٢.

الحكومة العربية الأولى قائلاً: (الدين لله والوطن للجميع، نحن عرب قبل موسى وعيسى ومحمد، إن محمداً لعربي قبل أن يكون مسلماً)^(١).

ووقف بعض شعراء الجمعيات القومية العربية، أمام الملك فيصل بن الحسين خلال حكمه في سورية، قائلاً:

فابدأ بفصل الدين عن شرع الوَرَى تُبِعَ الإمامُ إذا يسيرُ أمامُ^(٢).

الهدف الرابع: تحكيم الدستور:

سارت الدولة العثمانية انطلاقاً من مبدأ تنظيم السلطة والإصلاح، إلى وضع دستور للبلاد يكون مرجعاً للحكم والتحاكم، ويرى أعضاء الجمعيات القومية العربية، أن إنقاذ الدولة العثمانية من ضعفها لا يتم إلا بنقلها من الحكم الاستبدادي إلى الدستوري واقتفاء آثار أصحاب التمدن بنشر العلم والتسوية بين أصناف الرعية ..^(٣).

وقبل الحديث عن هذا الهدف لدى الجمعيات القومية العربية، أتبه إلى أن الدستور العثماني يعود تأسيسه إلى مدحت باشا، الذي يسمى بـ(أبي الدستور)^(٤) ويعده أعضاء الجمعيات القومية العربية، ممن كان له أعظم الأثر في

(١) الشعر والوطنية في لبنان والبلاد العربية-وليم الخازن-٨٠.

(٢) المصدر السابق نفسه-٣٢٧. قائل القصيدة: محبوب الخوري الشرتوني. وهو من نصارى العرب.

(٣) مجلة الهلال-١٣٢٦/٩/٦ (١ أكتوبر/١٩٠٨)-الجزء الأول من السنة (١٦).

(٤) نشوء القومية العربية-زين نور الدين زين-٣٧.

تأسيس الجمعيات القومية وخاصة بعد أن أصبح والياً على دمشق^(١). كما أسس الجمعيات الماسونية كجمعية زهرة الإحسان، وهي إحدى الجمعيات الماسونية^(٢).

كما وصف أعضاء الجمعيات القومية العربية مدحت باشا بأنه ناهية من نبهاء الدولة الأتراك، وزعيم من زعماء الفكر .. وأنشأ منشآت عديدة عمرانية وعلمية، ولمس مقدار الحاجة إلى إصلاحات جذرية في الدولة، ثم تولى رئاسة الوزراء فبذل جهده في تحقيق ذلك.. وأصدر الدستور الذي تضمن كثيراً من الأسس والقواعد والحقوق المطلوبة^(٣).

وبعد تنقل مدحت باشا سائحاً لمدة ستة أشهر في أوروبا يتفقد أحوال دولها ويدرس نظام بعض الإدارات الأوربية^(٤)؛ قدم للدولة العثمانية دستوراً^(٥) تسيير عليه، وقال عن الدستور: إن الدستور سراج منير، سيرشدنا ويهديننا إلى الكمال

(١) الحلقة المفقودة في تاريخ العرب-محمد جميل بيهم-٢٠٦/١-مكتبة مصطفى الباي الخليلي-مصر- الطبعة الأولى-١٣٦٩.

(٢) مدحت باشا أبو الدستور وخالع السلاطين-قدري قلججي-٧٥.

(٣) نشأة الحركة العربية الحديثة-محمد عزة دروزة-١٦٧.

(٤) مجلة الهلال-الجزء الرابع من السنة السابعة عشرة-(١٣٢٦/٩/٨-١/يناير/١٩٠٩م)بعنوان: (مدحت باشا أبو الأحرار) ص:١٩٥.

(٥) انظر عن نصوص الدستور:

١. مجلة الهلال - الجزء الأول من السنة السابعة عشرة-(١٣٢٦/٩/٦-١ أكتوبر/١٩٠٨)

٢. البلاد العربية والدولة العثمانية-ساطع الحصري-١٥٥.

٣. العرب والترک في العهد الدستوري العثماني-توفيق برو-٥٠١.

٤. نشأة الحركة العربية الحديثة-محمد عزة دروزة-٢١٦.

الحقيقي. وبهدى هذا السراج انتقلت دول أوروبا من ظلمة الجهل إلى عالم النور. وبفضل المجالس النيابية أصبحت هذه الدول مثلاً جميلاً وقدوة حسنة تستفيد منها الأمم، ويقتدى بها العالم، دولاً يعرف كل فرد من أفرادها ماله من الحقوق وما عليه من الواجبات^(١).

ويعتبر الدستور عند أعضاء الجمعيات القومية العربية من ثمار التمدن الحديث. وأهم ما يمتاز به أنه مبني على إرادة الأمة أو هو خلاصة إرادتها وأساسه الإنابة؛ أي تنتخب الأمة من ينوب عنها في سن القوانين ومراقبة سير الحكومة.. والفضل الأكبر — كما يقول أعضاء الجمعيات القومية العربية — في إنشاء الحكم الدستوري على هذه القواعد للإنكليز.. وكل ما عند الأمم الأخرى من الأحكام الدستورية مبني على الأساس الذي وضعه الإنكليز، وكان تاريخهم قدوة للحكومات الدستورية في أثناء هذا التمدن^(٢).

ومن أبرز معالم الدستور علمنة الدولة العثمانية، وإقصاء شريعة الرحمن، وتبني النظام الدستوري الغربي في الحكم، ذلك النظام الذي يقول مدحت باشا فيه: (إنه العامل الأول في تقدم الشعوب ورفقيها) ويضيف قائلاً: (ولأن تركيا تعتبر في مصاف الدول العظمى، عليها، إذا أرادت أن تحتفظ بهذه المكانة وإذا رغبت في مواكبة سائر الدول على قدم المساواة في مضمار التقدم العلمي، أن تتبع الأنظمة ذاتها التي تتبعها الدول العظيمة)^(٣).

(١) مدحت باشا أبو الدستور العثماني وخالع السلاطين -قدي قلعجي- ٥٦.

(٢) مجلة الهلال -الجزء الأول من السنة (١٧) - (١٣٢٦/٩/٦) - ١ أكتوبر/١٩٠٨) بعنوان ص: ٤٣.

(٣) نشوء القومية العربية -زين نور الدين زين- ١٨٦.

ولذا لما أقر الدستور في الدولة العثمانية؛ عرض مدحت باشا على الحكومة تعيين بعض الولاة من المسيحيين عملاً بالمساواة، وأصبحت مصالح الأمة في الدولة العثمانية، تدار على مختلف المذاهب فكان فيهم المسلم، والمسيحي على اختلاف الطوائف، واليهودي والدرزي والنصيري .. وغيرهم^(١).

وتناولت صحف نصارى العرب قضية تجنيد غير المسلمين، ذاكرين أن هذا الحدث هو جّراء تطبيق الدستور فكان مما قالوا: كل الذين تجندوا من المسيحيين يشكرون نعمة الدستور ويعدون أمر التجنيد أكبر بركة لهم، ولم يروا من إخوانهم المسلمين إلا كل ولاء ومحبة^(٢).

وقد قال شيخ الإسلام في عصره عن هذا المنهج في إدارة شؤون الأمة: .. لا أمير للمؤمنين بعد نزع الأمر منه، وما آراء المسلمين إلا بآراء شرذمة أكثرهم لا يؤمنون بالله ورسوله، وهل تدري كيف انعقد مجلسهم بأنقرة، وكيف انتخبتهم الأمة، ولا تدري بهم الأناضول التي هي محيطهم الأدنى^(٣).

هذا تعريف موجز عن الدستور والهدف من تطبيقه، وأما عن مساعي الجمعيات القومية العربية في تحقيق تطبيق الدستور، فأكثر من أن تعد أو تحصر، وقد أطلق أعضاء الجمعيات القومية العربية على مدحت باشا ومن ناصره في

(١) مجلة الهلال-الجزء الأول من السنة (١٧)- (١٣٢٦/٩/٦) - ١ أكتوبر/١٩٠٨ ص ٩-١٠.

(٢) مجلة الإخاء-مدير التحرير: جبران مسوح-عدد ٣٠-بتاريخ ٢٣/أيلول/١٩١٠-السنة الأولى

(٣) النكير على منكري النعمة من الدين والخلافة والأمة-مصطفى صبري-٢٦.

إعداد الدستور، في منزلة شهداء الحرية، وكانت أجسادهم الطاهرة أول دفينة من دفائن الحرية واراها السلطان السابق^(١).

وعرّف أعضاء الجمعيات القومية العربية الدستورَ وهدفه، بمعنى تعريفٍ وهدفٍ مؤسسيه، حيث قال أعضاء الجمعيات القومية العربية: من طبيعة الدستور ربط أواصر الأخوة العامة بين الأمة، لأنه عبارة عن نزع السلطة من الأفراد، ووضعها بين يدي الجماعات، وأية جامعة تجمع بين عناصر الأمة على اختلاف المشارب والمذاهب والآراء، وتجعلها في مستوى واحد بالحقوق والواجبات أقوى من حكم الأمة نفسها لنفسها، وأية رابطة تربط العناصر العثمانية أعظم من هذه الرابطة^(٢).

واعتبرت الجمعيات القومية العربية إعلان الدستور في الدولة العثمانية رحمة بهذه الدولة، وإنقاذاً لها.. وإن يوم (٢٣ يوليو) الذي نودي فيه بالحكومة الدستورية ومحو السلطة الاستبدادية في المملكة العثمانية، كان يوماً سعيداً على هذه الأمة، لم يشهد مثله العثمانيون إلا اليوم الذي افتتح فيه السلطان محمد مدينة القسطنطينية، ويصف مؤسس حزب اللامركزية، حال البلاد العربية بعد إعلان الدستور، قائلاً: ولم أر في سورية شاعراً أو خطيباً إلا وهو ينادي باسم الاتحاد، ويدعو إلى معاضدة الأحرار وتأييد الدستور بالنفس والمال، والناس كلهم صاغون منصتون.. وهكذا كانت الحال في سائر البلاد العربية..^(٣).

(١) مؤلفات رفیق العظم-الجامعة العثمانية-١٢٠.

(٢) المصدر السابق نفسه-١٢٥.

(٣) المصدر السابق نفسه-١٢٣ و ١٢٩.

ويعدّ أعضاء الجمعيات القومية العربية أنّ من آثار إعلان الدستور انبثاق روح الوثام بين النصارى والمسلمين في بلاد الشام، وتكرّر مشهد تعانق بعض المشايخ والقسس والرهبان في بعض التجمعات .. وقال أحد نصارى بيروت:

تعانق الشيخ والقسيس واصطحبا من بعد ما افترقا ضدين واختصما
تأخيا في حمى الدستور واتحدا ورفرفت راية التوحيد فوقهما^(١)

وحيثما وقع الخلاف بين الترك والعرب، وذلك بظهور الدعوة إلى القوميات، وانفراد جمعية الاتحاد والترقي بسياسة الدولة العثمانية^(٢)، يقول مؤسس الحزب اللامركزي: في إبان هذا السرور وفي مبدأ تلك النهضة الآخذة بنفوس العثمانيين إلى مرتقى السعادة والوفاق والحب، بدأ الاتحاديون باضطهاد العرب قبل كل الشعوب... ذلك أن العثمانيين هبوا بعد إعلان الدستور .. بتأليف الجمعيات وفتح المنتديات.. حيث قامت بهذا العمل كل أبناء العناصر الموجودة، فألف الأرنأووط جمعية وافتتحوا منتدى، والشركس مثل ذلك، ثم الأكراد والروم والأرمن وغيرهم والعرب كذلك، فإنهم ألفوا جمعية سموها جمعية (الإخاء العربي العثماني) وافتتحوا منتدى^(٣) بهذا الاسم أيضاً.

(١) نشأة الحركة العربية الحديثة-محمد عزة دروزة-٢٧٨.

(٢) انظر:

١. نشأة الحركة العربية الحديثة-محمد عزة دروزة-٢٩٦.

٢. القومية العربية-مصطفى الشهابي-٦٣.

(٣) انظر: الباب الأول-الفصل الأول-التعريف بالجمعيات القومية العربية-ص: (٦٢) من الرسالة.

فما نوهض قوم من أولئك الأقوام بهذا العمل الجليل — كما يسميه — إلا العرب، وما زالوا يناهضون ويضارون حتى حلوا هذه الجمعية وأفلوا ذلك المنتدى وغيره قائم. فكانت هذه أول بادرة من بوادر سوء الظن صدرت من الاتحاديين فسرت إلى العرب أيضاً، وأخذ هذا الخطاب يتفاقم إلى اليوم^(١).

وحيثما بلغت هذه الحال مبلغها، تأكدت المطالبة بتنفيذ أحكام الدستور من قبل الجمعيات القومية العربية، وأصبح هدفاً بارزاً من أهدافها، بحجة أن فيه ضمان لحقوقهم، فقد قال أعضاء الجمعيات القومية: إذا كانت أحكام الدستور مطبقة اليوم عند الحكومة الجديدة (الاتحاد والترقي) تطبيقاً صحيحاً على مبادئ الحرية والمساواة، وسلطة الأمة هي الحاكمة على الضمائر المحققة بطبيعتها لمعنى التعاون والإحياء، فما هي الحاجة لدعوة العناصر كل يوم إلى الاتحاد والوثام والصلح والسلام. والحقيقة التي لا ريب فيها أن الاتحاديين قد انفصلوا عن الأمة انفصلاً لا يرضاه لهم صديق للحرية، فأصبحوا في شقِّ الأمة في شقِّ آخر منذ تظاهروا بالنعرة الجنسية، وأعلنوا ما كانوا يضمرونه من الاستمساك بمبدأ سيادة التركي على العناصر العثمانية كلها، فنبهوا بذلك العصب الحساس من الشعوب العثمانية..^(٢).

وبين أعضاء الجمعيات القومية العربية أن للعرب حقاً في السلطنة، ولكن لا يرغبون المطالبة فيه ما دام الدستور جارياً على معنى الدستور^(٣). لأن الحكم

(١) مؤلفات رفیق العظم-الجامعة العثمانية-١٢٩-١٣٠.

(٢) المصدر السابق نفسه-١٢٥.

(٣) المؤتمر العربي الأول-خطبة عبدالغني العريسي-٤٤.

الدستوري، كما يقول أعضاء الجمعيات القومية العربية، يقتضي أن تكون الأمة هي صاحبة النهي والأمر في شؤونها وأن تكون الهيئة الحاكمة وكيلة عن الأمة في إدارة تلك الشؤون.. ولأن الحكم الدستوري، يقتضي اشتراك أبناء الأمة جميعاً في كل حق وفي كل واجب^(١).

(١) المصدر السابق نفسه-خطبة اسكندر عمون-١٠٠.

المبحث الثاني

الهدف الأول: الولاء القومي مقدم على الولاء الديني:

سبق بيان دور وتأثير نصارى العرب في تأسيس الجمعيات القومية، ولما لهم من تأثير فقد أصبح من أهداف الجمعيات القومية العربية، أن الولاء للقومية العربية عند أعضاء الجمعيات مقدم على ولائه لغير العرب من المسلمين.

والانقلاب العثماني دليل على هذا حيث اتفق أعضاء الجمعيات القومية العربية، في مختلف عقائدهم ومذاهبهم للقضاء على الدولة العثمانية. وقررت مبادئ الجمعيات القومية تقسيم أعضاء الجمعيات القومية إلى أخوة لغة وأخوة دين، كما قال نائب رئيس المؤتمر العربي الأول وهو نصراني في كلمته خلال انعقاد المؤتمر العربي: أنتم يا مسلمي سوريا إخواننا في اللغة والجنسية والوطنية، وإخوان الترك في المذهب^(١).

وأما عن بعض أقوال أعضاء الجمعيات القومية العربية، للدعوة في تحقيق هدف الولاء للقومية العربية مقدم على ولاء الدين، يقول عبدالرحمن الشهبندر: نحن معاشر المسلمين — الذين يؤمنون بأن الله واحد أحد — مصدر الخير وفيه

(١) المؤتمر العربي الأول-١٤٢.

تجتمع الكمالات، فنتفق تمام الاتفاق مع إخواننا النصارى فيما يعتقدونه بالله تعالى. فعبث وعبث حقير أن يحاول أحد أن يضع فروقاً بيننا لاختلافات ثانوية لا شأن لها في الله، ولا شأن لها في الآخرة، ولا شأن لها في الوطنية^(١).

لقد أصبح من معتقد الجمعيات القومية العربية أنها لا تفرض على أصحابها عقيدة دينية معلومة كما يقول مصطفى الشهابي: بل تتسع لكل عربي مهما يكن دينه أو يكن مذهبه الديني، وهي على هذا تجل العقيدة الدينية القومية والتحلي بالأخلاق الدينية الفاضلة^(٢).

وليس هناك أي تباين بين النصارى والمسلمين في المصالح العامة، سواء أكان في مجال السياسة والحكم والتنظيم والتشريع أم في مجال الحقوق والواجبات، أم في مجال الاقتصاد والاجتماع، أم في مفهوم وأهداف الفكرة العربية، وما يعود على الفريقين من منافع وعزّ وسؤدد من تحقيقها. وليس للدين والتمايز الديني أي دخل في كل ذلك، لأنه ممارسة وجدانية.

وفي تقرير هذا الهدف استدلت بعض أعضاء الجمعيات القومية، بالوقائع التاريخية، حيث ذكروا أن النعرة الجنسية فضيلة آلية في النفس.. ولما قدم أبو عبيدة بن الجراح وخالد بن الوليد بجيوش العرب المسلمين إلى الشام، وجدوا حارساً على أبوابها من الغسانيين وهم عرب نصارى يتقدمهم ملكهم المسيحي جبلة بن الأيهم. إلا أن هؤلاء بدلاً من قتال المسلمين والوقوف في وجوههم

(١) عبدالرحمن الشهبندر - حياته وجهاده - حسن الحكيم - ١٥٣.

(٢) القومية العربية تاريخها وقوامها ومراميتها - مصطفى الشهابي - ٣٤٧.

عطفوا عليهم عطفة الأخ، فتركوا الجامعة الدينية والرابطة السياسية اللتين كانتا تقضيان عليهم بما موالاته الروم وخطبوا وددًا وولاء الناطقين بلسانهم بني أبيهم العرب، مهدوا لهم السبل وفتحوا الطرق ومكنوهم كل التمكين من فتح البلاد العربية، وما أبداه نصارى غسان من العصية العربية في هذا الشأن الخطير لأعظم شاهدٍ على أن العرب متحمسون بالجنس قبل الدين. وهي فضيلة الشعوب الحية، فضيلة الشعوب التي لا تريد أن تموت^(١).

لقد اعتُبر المبدأ القومي عند الجمعيات القومية العربية عقيدةً تُوحّد جميع العقائد المختلفة، فأعضاء الجمعيات القومية العربية، يختلفون عقائدياً، ولكنهم يتفقون على المبدأ والعقيدة القومية، كما قال مصطفى الشهابي — أحد أعضاء الجمعيات القومية العربية —: الإسلام دينٌ سمحٌ يأمر بالمعروف وينهى عن المنكر، والنصرانية دينٌ يأمر بالتعاطف والمحبة، فلا هذا يأمر بالتعصب والبغضاء ولا ذاك.

ويقول الشهابي: للمسلم أن يعبد الله جل وعلا في مسجده وللمسيحي أن يعبد في كنيسه، وفي وسع كليهما أن يؤمنا بالقومية العربية، وأن يعملوا عمل يد واحدة في خير العروبة^(٢). والسبب في ذلك كما قرره أعضاء الجمعيات: أن اختلاف المذاهب الدينية ليس من شأنه أن يكون ذا أثر في الصفة القومية في الحقيقة^(٣).

(١) المؤتمر العربي الأول - خطبة ندره مطران - ٥٨.

(٢) القومية العربية تاريخها وقوامها ومراميتها - مصطفى الشهابي - ٣٥

(٣) نشأة الحركة العربية الحديثة - محمد عزة دروزة - ٢٦. وانظر: ما هي القومية - ساطع الحصري -

وقد قسم أعضاء الجمعيات القومية العربية الناسَ إلى قسمين، هما: قسمٌ يؤمن بالله، وآخرٌ ملحدٌ لا يؤمن بالله، هذا القسم قوي وذاك القسم قوي أيضاً لقد أصبح الإلحاد مُنظماً تنظيمًا سياسياً اجتماعياً تعضده دول مُعظّمة.

ثم صوروا الصراع بين المؤمنين بالله وبين الملاحدة، بقولهم: وإنما نحن راكبون في سفينة واحدة وقد ركب معنا اليهود والبوذيون.. وجميع الذين يؤمنون أن دائرة الكون إنما تدار بإرادة الله، وإنما في سفينة واحدة، والآخرون يركبون في سفينة أخرى ونحن نتناطح في هذا البحر الخضم ونتضارب يرمي بعضنا بالقنابل، فإذا غرقت سفينتنا أظنون أن النصارى يغرقون ونحن نسلم؟ كلا ثم كلا؟.. خير لنا أن نغرق ونحن متحدون من أن نعيش ونحن مشتتون^(١).

وقد كان لشعراء الجمعيات القومية العربية دورٌ في تحقيق هدف تقديم الولاء القومي على الولاء في الدين، فقد أصبحت القصائد التي تناول هذا الهدف تعد من مظاهر وآثار النهضة العربية والوعي القومي، وكان يرسلها الشعراء والكتاب والأدباء من مسلمين ومسيحيين إلى بني قومهم بالدعوة إلى الوئام ونبذ الخلاف والتعصب الطائفي اللذين كانا يثيران الفرقة والأحقاد بين أبناء الوطن الواحد والأمة الواحدة ويؤديان إلى البلبلة والفتن، ويعودان بالبلاء العظيم عليهم وعلى البلاد معاً^(٢) كما يقول أعضاء الجمعيات القومية.

ومن تلك القصائد:

(١) عبدالرحمن الشهنندر-حياته وجهاده-حسن الحكيم-١٥٥.

(٢) نشأة الحركة العربية الحديثة-محمد عزة دروزة-١٣٤٥.

وإني ليوهنني تقسُّمُ أمّتي
متى ينتهي كهاننا وشيوخنا
شقيناً لنعماهم وراحتهم فهم
فما الدين إلا نسخة بعد نسخة
ومما قيل أيضاً:

سلامة على كفر يوحّد بيننا
وقالوا أيضاً:

قالوا وفي الدين بون دون وحدتنا
لئن أصرّوا على أهواء أنفسهم
إلى متى باسم هذا الدين نقتسم
لا الدين يبقى ولا الدنيا ولا الشيم^(٢)

فهذه القصائد وغيرها كثير، تبين منهج الجمعيات القومية العربية، في التعامل مع العقائد المختلفة، لتحقيق هدف الولاء للقومية العربية المقدم على الولاء الديني.

ومن آثار هذا الهدف عند الجمعيات القومية العربية أن جعل النصارى يندمجون في الحركات الوطنية والنضالية التي قامت في مصر وفلسطين وسورية... حتى ليصح أن يقال: إن جمهور النصارى في مصر وسورية وفلسطين والعراق، قد أخذ يندمج في المجموع العربي العام اندماجاً صادقاً عاطفة ومصالحة ووطنية وقومية^(٣).

(١) الاتجاهات الأدبية في العالم العربي الحديث - أنيس المقدسي - ٨١.

(٢) الشعر والوطنية في لبنان والبلاد العربية - الياس الخازن - ٨١.

(٣) مختارات قومية - محمد عزة دروزة - ٦٤١ - ٦٤٣.

وكان التطبيق الفعلي لما ترغب في تحقيقه الجمعيات القومية العربية تحقق لها في إدارة الحكومة العربية الأولى في دمشق^(١)، حيث أن الأقلية لم يكن لها أثر في ذلك الزمن، كما يقول أعضاء الجمعيات القومية العربية.

وكان لكل عربي في الحكومة العربية الأولى الحق بأن يتولى عملاً في الحكومة على حسب ما عنده من معرفة ومن خبرة بذلك العمل .. ولم يكن للأديان ولا للطوائف اعتبار في تولى مناصب الحكومة، فقد كان في المناصب الكبرى السني والشيعي والعلوي والدرزي والماروني والأرثوذكسي والكاثوليكي والبروتستاني، وجميعهم يخدمون في حكومة عربية ويعملون لقضية العروبة^(٢).

إن تحقيق هدف تقديم الولاء القومي على الولاء في الدين، قد صرح به محمد عزة دروزة — أحد أعضاء الجمعيات القومية العربية — حيث ذكر أن هذا المبدأ من المآخذ التي أخذت على الجمعيات القومية العربية، فقد قال: يؤخذ على القوميين العرب المحدثين في حركتهم أن فريقاً منهم غالى في الانتماء القومي العربي، ونسي في غمرة هذا الغلو ما كان للإسلام من الأثر الرئيسي والجوهري في المجد العربي الحديث، فلو لم يكن الإسلام، ولو لم يكن القرآن لما كان العرب أمة واحدة من الخليج إلى المحيط..^(٣).

(١) انظر: الحكومة العربية الأولى في دمشق-خيرية قاسمية.

(٢) القومية العربية تاريخها وقوامها ومراميتها -مصطفى الشهابي-١٢٢.

(٣) محمد عزة دروزة نشأته وحياته ومؤلفاته-حسين حمادة-٩٥-دار قتيبة-دمشق-الطبعة الثانية-

الهدف الثاني: تقرير مبدأ الولاء للقومية العربية:

انطلقت الجمعيات القومية العربية لتحقيق هذا الهدف، من مبدأ توحيد الكلمة، وأصلت أن الدين ليس الأصل الذي تجتمع عليه الجمعيات القومية.

إن أصل مبدأ توحيد الكلمة وجمع الصف من أساسيات الدين الإسلامي، كما قال تعالى: ﴿وَأَعْتَصِمُوا بِحَبْلِ اللَّهِ جَمِيعًا وَلَا تَفَرَّقُوا وَاذْكُرُوا نِعْمَتَ اللَّهِ عَلَيْكُمْ إِذْ كُنْتُمْ أَعْدَاءً فَأَلَّفَ بَيْنَ قُلُوبِكُمْ فَأَصْبَحْتُمْ بِنِعْمَتِهِ إِخْوَانًا﴾^(١) كما هي عن التنازع والشقاق في قوله تعالى: ﴿وَأَطِيعُوا اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَلَا تَتزَعَّوْا فَتَفْشَلُوا وَتَذْهَبَ رِيحُكُمْ وَأَصْبِرُوا إِنَّ اللَّهَ مَعَ الصَّابِرِينَ﴾^(٢). وغيرها من آيات الكتاب الحكيم، التي تدل على هذا المعنى.

ولكن هدف الجمعيات القومية العربية، هو أن الولاء يكون للقومية العربية وليس للدين، والاجتماع والمواولة والنصرة للقومية العربية، وقد وردت عبارات تنص على هذا الهدف من أعضاء الجمعيات القومية من مسلمين وغيرهم.

وبدراسة أقوال أعضاء الجمعيات القومية، يتبين أنها اتخذت مبدأ القومية العربية، محورا أساسيا تركز عليه في تقرير أهدافها وبرامجها، ولهذا اعتبرت الجمعيات القومية العربية أن الجنسية العربية ديانة للعرب جديدة، وأن الجنسيات آلهة العصور الآتية، وأكدوا على السعي منذ الآن لخلق إله للأمة هو الجنسية العربية، إله يضحى كل من عباده حياته في سبيل نصرته^(٣).

(١) سورة آل عمران-رقم الآية (١٠٣).

(٢) سورة الأنفال-رقم الآية (٤٦).

(٣) جريدة المفيد رقم ١٤١٩ بتاريخ ١١/٤/١٩١٣م (نقلا من كتاب العرب والترك-توفيق برو-

لم تعتبر الجمعيات القومية العربية الدينَ هو أصل وحدة الأمم والشعوب، وإنما أصل الأمة هي وحدة اللغة، وقد قال أعضاء الجمعيات القومية العربية: إن أس الأساس في تكوين الأمة وبناء القومية هو: وحدة اللغة ووحدة التاريخ.

وعللوا في اختيارهم هذا بأن الوحدة في هذين الميدانين، هي التي تؤدي إلى وحدة المشاعر والمنازع، ووحدة الآلام والآمال، ووحدة الثقافة... وبكل ذلك، تجعل الناس يشعرون بأنهم أبناء أمة واحدة، متميزة عن الأمم الأخرى^(١)..

وأما عن الرابطة الدينية فقد عجزت — كما يقول أعضاء الجمعيات القومية — دائماً عن إيجاد الوحدة السياسية.. وإن الرابطة الدينية لا توجد إلا حيث توجد حكومة إسلامية والعاطفة الإسلامية لم تقدر مرة من المرات أن تحمل أميراً مسلماً على التنازل عن حقوقه لأمر آخر من المتدينين بدينه حتى لو كان هذا خليفة^(٢). وإذا حدث أن الدين يجمع المنتسبين إليه، فإن هذا الجمع يكون في العواطف دون الفعل، فقد يتألم مسلم الغرب لمسلم الشرق إذا أصيب بمصيبة كبرى، فلا يتعدى تألمه هذا دائرة الشعور^(٣).

وقالوا: إننا لا نبي نظريتنا في القضية العربية على أساس وحدة الدم والجنس والدين فقط. وإنما نبنينا أيضاً على الأساس القومي.. وهو وحدة الوطن واللغة والمصلحة.. وهذا الأساس أوسع شمولاً وأرحب صدرًا من نظرية

(١) ما هي القومية-ساطع الحصري-٢١٠.

(٢) المؤتمر العربي الأول-خطبة عبدالحميد الزهراوي-٢٠.

(٣) مؤلفات رفيق العظم-رسالة الجامعة الإسلامية وأوربة-٤٩.

الدم والجنس والدين. لأنه يعتبر به عربياً قومياً كل متكلم باللغة العربية وليس له لغة أم غيرها .. مهما اختلفت الأصول والأديان والمذاهب^(١). إذاً الأساس في وحدة الأمة هو اللغة، فلا الدين، ولا الدولة، ولا الحياة الاقتصادية تدخل بين مقومات الأمة الأساسية^(٢).

وبتبني هدف الولاء القومي أصبح مقر الجمعيات القومية العربية مكاناً يجتمع فيه أهل العقائد المختلفة، كما وُصف المنتدى الأدبي بأنه: كان طابع العروبة المميز له، فاجتمع في رحابه المسلم السني والشيعي والدرزي والمسيحي على اختلاف الطوائف إخواناً متحابين هدفهم مجد العروبة وبعثها^(٣).

وفي المؤتمر العربي الأول، صرح رئيس المؤتمر — عبد الحميد الزهراوي — في إجابة سؤال عن خطة المؤتمر نحو العرب غير العثمانيين؟ فقال: يهمني أن أصرح لك قبل كل شيء بأن هذا المؤتمر ليس له صفة دينية، وكل أعماله تنحصر في الدائرة المحدودة له من البحث في شؤوننا الاجتماعية والسياسية. ولذلك ترى عدد أعضائه المسلمين والمسيحيين متساوياً^(٤).

وبين نائب رئيس المؤتمر العربي الأول، بأن الجمعيات القومية العربية في عقدها لهذا المؤتمر، واختيار فرنسا مكاناً لانعقاده، لتؤكد على تحقيق الرغبة بأن

(١) نشأة الحركة العربية الحديثة-محمد عزة دروزة-٣٨-٣٩(بتصرف).

(٢) ما هي القومية-ساطع الحصري-٢١٠.

(٣) نشأة الحركة العربية الحديثة-محمد عزة دروزة-٣٥٥.

(٤) المؤتمر العربي الأول-١٨.

الأمة العربية: أمة تطلب في الحياة حرية وعزاً، وتسعى وراء نحو اختلافات جنسية ومذهبية كانت سبباً في شقائنا وشقاء تركيا معاً^(١).

وليس هذا فقط في المؤتمر العربي الأول، وإنما أكد أعضاء الجمعيات القومية العربية بأن الذين قامت النهضة على أكتافهم أو على جماجمهم، سواء في سورية أم العراق أم فلسطين أم لبنان، لم يكن فيهم من يفكر في اتخاذ الفكرة الإسلامية أساساً للوحدة والاستقلال. بل إنهم جميعاً كانوا يعملون على تعزيز الروح القومية البحتة وإحياء مجد العرب على أساس هذه الروح^(٢).

ولتحقيق هذا الهدف أكدت الجمعيات القومية العربية، على نبذ ما سمته التعصب الديني، واعتبرت التعصب الديني ليس سوى تطور في المصلحة الشخصية. وأما عن التعصب القومي، فقد اعتبرته الجمعيات القومية شعور عفويّاً فطريّاً مثل الشعور العائلي الذي يأخذه بعين الاعتبار كل سياسي..^(٣)

الهدف الثالث: نشر الأفكار الغربية النصرانية:

كان للاتصال بالعالم الغربي النصراني أثر عظيم على أعضاء الجمعيات القومية العربية، وأن العصر الذي أنشأت فيه الجمعيات العربية خاصة، يعتبر عصر بروز معالم الدعوة للقوميات المختلفة^(٤)، وعصر متغيرات في واقع العالم

(١) المصدر السابق نفسه-١٤٣.

(٢) مذكراتي على هامش القضية العربية-أسعد داغر-٤٦.

(٣) يقظة الأمة العربية - ١٦٧-١٦٨.

(٤) انظر: ١ - حاضر العالم الإسلامي-لوثرروب ستودارد-٧١/٤-١٥٦.

٢ - واقعنا المعاصر-محمد قطب-٣٤١.

الغربي من تأثيرات الثورة الفرنسية، كما قال عنها أعضاء الجمعيات القومية العربية: ثورة ارتقى بها الإنسان، واصطَلَحَ نوعَ الأحكام على ما هو عليه الآن، ليس في فرنسا وحدها، بل في أوروبا كلها، بل في العالم قاطبة^(١).

لقد انعكست التيارات الاستعمارية الفرنسية والإنجليزية، وتيارات الخداع الوطني على الجمعيات القومية العربية، ممثلة في بعض الصحف العربية التي تتكلم بلسان فرنسا يغذيها قنصلها العام في بيروت.. ويروجها لفيف من الكتبة والصحفيين، وقد وجدّت لها أنصاراً أقوياء في أوساط حزب اللامركزية بمصر منهم إسكندر عمون، نائب رئيس هذا الحزب، وكانت جريدة الأهرام في القاهرة تتكلم بلسانها^(٢).

وقد كان أصل معتقد القومية العربية، قد جاء من الغرب إلى الشرق فيما جاء من أفكار وتيارات.. والتي تستهدف إنشاء كيان قومي موحد تنسكب فيه الكتل التي تَمُتُّ إلى أصل واحد أو تقطن بلاداً واحدة وتتكلم بلغة واحدة وتشارك في المصالح والأهداف قد انبثقت في أوروبا في القرون الأخيرة^(٣).

ومن خلال الوسائل المختلفة من وسائل نقل الفكر النصراني لبعض البلاد العربية، كالبعثات العلمية، والإرساليات التنصيرية، ومدارس التنصير.. الخ أثرت في كثير من أعضاء الجمعيات القومية، وقامت بعض الجمعيات بنشر هذه الأفكار.

(١) الفكر العربي الحديث أثر الثورة الفرنسية في توجيهه السياسي والاجتماعي -رثيف حوري- ١٢٢.

(٢) تاريخ الصحافة السورية -شمس الدين الرفاعي- ١/٢٤٨ -دار المعارف- مصر.

(٣) نشأة الحركة العربية الحديثة -محمد عزة دروزة- ٩.

ويُحدّث فخري البارودي — أحد أعضاء الجمعيات القومية العربية — عن دور أعضاء الجمعيات القومية في نشر الفكر الغربي: بأنه بدأ يتكون في دمشق جمهور من الشباب العربي، ومن خريجي المدارس العالية .. وكانوا يعتقدون اجتماعات خاصة، ويخوضون في أحاديث جديدة غير مألوفة عند الدمشقيين آنذاك.. كان هؤلاء الشباب الناهضون يتحدثون عن أوروبا وتقدمها وعلومها، وعن نهضات الشعوب، والشكوى من ظلم الحكومة.. وسرد حكايات طويلة عريضة عن أغراض الأحرار ومن بينهم: شكري العسلي، عبدالوهاب الانكليزي، ... الخ من أعضاء الجمعيات القومية العربية^(١).

ويذكر عبدالرحمن الشهنندر — أحد أعضاء الجمعيات القومية — عن أنواع العلوم والمعارف، التي يسعى مع غيره من أعضاء الجمعيات العربية في نشرها: (أنها نتيجة كتب قرأناها ككتاب (روح الشرائع) لمونتسكو، وكتاب (أصول الشرائع) لينتام، وكتاب (سر تقدم الإنكليز) وغيرها. كم هي الكتب التي تغذيها^(٢)).

كما سلك أعضاء الجمعيات القومية العربية، مسلك الترغيب للأخذ من آداب المجتمعات النصرانية، كفنون الشعر والأغاني والتاريخ والسياسة وغير ذلك. وقرر أعضاء الجمعيات: أنه لا يكمل علم الأدب للمتبحر فيه إلا بعد أن ينظر في أدب الأمم المتقدمة ولو نظرة عامة، يطلع بها على مجمل تاريخ أدبهم

(١) مذكرات البارودي-فخري البارودي-٥٧/١.

(٢) عبدالرحمن الشهنندر(حياته وجهاده)-حسن الحكيم-١٤٧.

وعلى بعض ما ترجم من مؤلفات المشاهير من كتبهم، فيقف على ما عندهم من سعة الفكر وسمو الإدراك وبلاغة المعاني، ويعرف أساليبهم^(١) واعتبر أعضاء الجمعيات القومية، العرب قبل تفتحهم على الغرب، في بلبله من أمرهم وتفرقة وجهل خيم عليهم، في ظل السلطنة العثمانية التي استغلت النعرة الدينية لتثبيت سلطتها على حساب المعرفة والقيم الوطنية^(٢).

وتم تصديق الجمعيات القومية العربية خلال المؤتمر العربي الأول على مبدأ اقتداء الشرق بالغرب، وأنه حان للشرق أن يمضي في المسائل السياسية والاجتماعية مشية أخيه (الغرب)، الغرب اليوم قدوة الشرق^(٣).

ومن أمثلة تطبيع واقع المسلمين بالمعتقدات النصرانية أن عبدالغني العريسي صرح أمام مؤسسي وأعضاء الجمعيات القومية العربية أن الأمم النصرانية أسوة لنا في الصبر على الابتلاء والحن ومطالبة الحقوق، وذلك بعد أن وقع الخلاف بين العرب وجمعية الاتحاد والترقي، وإن التعذيب والاضطهاد الذي يقع على أعضاء الجمعيات القومية، كان لنا أسوة فيه كثير من الأحرار الذين ماتوا كراماً من أجل الدفاع عن الحرية، وتأييد المذاهب السياسية.

وذكر عبدالغني العريسي أن أسوته وقدوته في الصبر رموز الكفر، فقال: ها هو كميل دمولين، قد قتلته الحكومة الاستبدادية، لأنه كان عاملاً في تحرير

(١) محمد روجي الخالدي-ناصر الدين الأسد-٧٦-معهد البحوث والدراسات العربية-١٩٧٠.

(٢) الشعر والوطنية في لبنان والبلاد العربية-وليم الخازن-٤١.

(٣) المؤتمر العربي الأول المنعقد في القاعة الكبرى للجمعية الجغرافية في باريس - ٣١.

الأمة من الاستعباد والظلم.. وهاهو برناف يقول إذ قتلته الحكومة (إلحكم يا قومي جزاء ما صنعته لدعائم الحرية)^(١).

وبعد ضرب الأمثلة بما سموهم (أعلام الحرية) بين أعضاء الجمعيات القومية العربية، بأن المدنية الأوربية العصرية هي التي انتشلتنا من سباتنا العميق. وإذا كانت ميولنا الماضية — العقائد الدينية في ظل الدولة العثمانية — هي التي خدرت أعصابنا وكانت سبب خمولنا فإن لنا في ميولنا الجديدة دافعاً إلى الترقى واستئناف الكرة..^(٢).

وعلى نهج إبراز أعلام الكفر سارت مجلة (المقتطف) التي هي من أبرز المجلات ذات المنهج القومي العلماني، وصاحبها (المقتطف) يعقوب صروف وفارس نمر هما من أوائل خريجي الكلية السورية الإنجيلية وهي (الجامعة الأمريكية في بيروت) وقد عمل الاثنان، بعد تخرجهما، مدرسين في الكلية نفسها، وقد رأيا أثناء الدراسة والتدريس أن مجارة الأمم الغربية في العلوم والمعارف مستحيلة إذا كانت الجماعة التي يعيشان بينها ستكتفي بترجمة الكتب. فلا بد من مجلة تقطف ثمار المعارف والمباحث، شهراً بعد شهر، وتذيعها في الأقطار العربية^(٣).

(١) مختارات المفيد عبدالغني العريسي - ٨٠ - دار الطليعة - بيروت - لبنان - الطبعة الأولى - ١٩٨١.

(٢) المؤتمر العربي الأول - خطبة عبدالحميد الزهرواي - ٢١.

(٣) لبنانيات تساريخ وصور - نقولا زيادة - ٧١. وانظر: تاريخ الآداب العربية - الأب لويس شيخو -

ولنشر المعتقدات النصرانية والعلمانية، قام بعض أعضاء الجمعيات القومية، بترجمة كتب النصارى وبخاصة الكتب التي تتعلق بالجوانب السياسية والاجتماعية، فقد قام أعضاء جمعية بيروت السرية، بترجمة كتاب (التحفة الأدبية) للفرنسي هنري غيزو، والكتاب من الغلاف إلى الغلاف يدعو إلى نظام سياسي متقدم خصوصاً على الصعيد الديمقراطي.. كما نشروا ما يرونه فحوضياً ومؤثراً^(١).

وكان من نتاج نشر الفكر الغربي النصراني على العامة، كما يقول أعضاء الجمعيات القومية العربية، أن علمتهم حال الأمم وسياسة السياسيين وقوانين المشرعين واستعمار المستعمرين... والاقْتباس من المدنية الحديثة وعلمتهم أن لا قيام لأمرهم إلا بالقومية العربية، وأن نعمة الدين وحدها لا تنجيهم مما هم فيه^(٢).

ومما ينبغي بيانه عند الحديث عن هدف نشر الأفكار الغربية النصرانية، أن أبرز من سعى في تحقيق هذا الهدف هم الأعضاء النصارى العرب المنتسبين للجمعيات القومية العربية، وقد سبق بيان دور نصارى العرب في تأسيس الجمعيات القومية^(٣).

ومن أمثلة هؤلاء النصارى: شبلي شميل الذي قال عنه محمد كرد علي: صورة رائعة لعالم مؤمن بعلمه، متفان في بثه والعمل به، كان فرداً في طبقة قل

(١) صحافة الكواكبي-جان دايه-٣٢.

(٢) خطط الشام-محمد كرد علي-٨٢/٤.

(٣) انظر: الفصل الثاني من الرسالة-ص: (٢٣٢)

أن نشأ للعرب في العهد الأخير رجل مثله في رجاحة العقل .. ولو قدر للشرق القريب أن يكثر فيه أمثال شمائل بعلمه ودأبه وإخلاصه لغيروا وجه حضارته، وقضوا على خرافاته وضلالاته، ولصانوا الأديان عما يحط من مقامها^(١).

وكتب رشيد رضا ترجمة موجزة عن شمائل قال فيها: كان فذاً نادراً المثل في مجموعة علومه، وأعماله وأفكاره وأخلاقه والذي يحملنا على ترجمته أنه كان من طلاب الإصلاح المدني والتجديد الاجتماعي المخلصين-وقليل ما هم-.

وقد أقام أعضاء الجمعيات القومية حفل تأبين للدكتور شمائل، وممن حضره رشيد رضا وألقى خطبة قال فيها: كان الدكتور شمائل متحلياً بعدة من الأخلاق الحميدة التي لا يرتقي العمران البشري إلا بكثرة المتحليين بها في الأمم كالصدق واستقلال الرأي والشجاعة والثبات والسخاء والوفاء والنجدة والمروءة والرأفة^(٢).

وبعد هذا الثناء والمدح، قال عنه محمد كرد علي: إن شمائل يعزى إليه نشر مذهب النشوء والارتقاء^(٣) في الشرق العربي.. ولم يرض أرباب الأديان عن

(١) المعاصرون-محمد كرد علي-٢٤٧.

(٢) مجلة المنار-المجلد ١٩-الجزء ١٠-سنة ١٣٣٥هـ (١٩١٧)-ص: ٦٢٥-٦٣٢. وانظر: حوادث وخواطر (مذكرات الدكتور شبلي شمائل)-٢٦١-دار الحمراء-بيروت-الطبعة الأولى-١٩٩١.

(٣) وهي النظرية التي قال بها: الباحث الإنجليزي تشارلز داروين سنة ١٨٥٩ (١٢٧٥هـ)، ونشرها بكتابه أصل الأنواع، فقد افترض داروين أن أصل الكائنات العضوية ذات الملايين من الخلايا كائن حقير ذو خلية واحدة، وحسب قانون الانتقاء الطبيعي وبقاء النسب نمت الأنواع التي استطاعت التكيف مع البيئة الطبيعية ومصارعة الكوارث المفاجئة وتدرجت في سلم الرقي، وتعبير داروين فقد وهبت بعض الكائنات عوامل البقاء ومؤهلات حفظ النوع بإضافة أعضاء أو صفات جديدة، وقد أدى ذلك إلى تحسن نوعي مستمر نتج عنه أنواع جديدة راقية كالقردة ونوع أرقى وهو الإنسان. انظر عن نظرية النشوء والارتقاء: (أصل الأنواع-ترجمة إسماعيل مظهر).

خطة شميل في نقله مذهب داروين، وجاراهم في إنكارهم عليه جماعة المقلدين أدعياء العلم، أما هو فقد ثبت وما حاد عن اتزانه، وما توقف عن نشر دعوته بالحكمة وطرق الإقناع^(١).

كما قال عنه رشيد رضا: كان أول من نشر مذهب دارون باللغة العربية وانتصر له وناضل دونه، ولم يكتف الرجل بذلك بل كان يصرح قولاً وكتابة بالتعطيل والإلحاد.

وعن الموقف الذي اتخذه رشيد رضا من عقيدة شميل، أنه قال: المسلمون لا يرون مروقه من عقيدته التي نشأ عليها مبعداً له عنهم لأنها ليست عقيدتهم، فهو في نظرهم طيب عالم اجتماعي غير مسلم، ولكنه أقرب من غيره من المخالفين لهم إلى التساهل والإنصاف لحرية واستقلال فكره^(٢).

وبين أروقة الجامعة الأمريكية في بيروت، ناصر أعضاء الجمعيات القومية من دعا إلى نظرية النشوء والارتقاء من أعضاء هيئة التدريس، وعن موقف الطلبة، قال أحد الطلبة: إن الحركة التي قام بها طلاب الكلية مما يحق تدوينه لأنه بدء نهضة جديدة بين تلامذة المدارس في الشرق لم يسبق لها مثيل^(٣) وقالوا عن النظرية: إن العقل والدين الصحيح يمشیان جنباً إلى جنب^(٤).

(١) المعاصرون-محمد كرد علي-٢٤٦.

(٢) مجلة المنار-المجلد ١٩-الجزء ١٠-سنة ١٣٣٥هـ-ص: ٦٢٥-٦٣٢. وانظر: حوادث وخواطر (مذكرات الدكتور شبلي شمیل)-٢٦١.

(٣) لبنانيات تاريخ وصور-نقولا زيادة-١٤٩. وانظر عن تفصيل الحادثة: رواد النهضة الأدبية-كمال اليازجي.

(٤) عبدالرحمن الشهبندر-حياته وجهاده-حسن الحكيم-١٥١.

الهدف الرابع: تطبيق الحكم الديموقراطي في البلاد العربيّة^(١):

من منطلق تحقيق هدف الجمعيّات القوميّة العربيّة، وهو استقلال البلاد العربيّة عن الدولة العثمانيّة، وتأثر أعضاء الجمعيّات القوميّة العربيّة بالأفكار والمعتقدات الغربيّة، في كثير من المجالات وأهمها المجال السياسي، كان من ضمن أهداف الجمعيّات القوميّة العربيّة، أن يكون حكم البلاد العربيّة حكماً ديمقراطياً.

ولقد عرف أعضاء الجمعيّات القوميّة العربيّة السياسة بأنّها: ممارسة النظر في الحوادث من كل جهاتها ليكون التصرف على حسبها. وقد جرت عادة رجال الحكومات أن يدعوا انحصار هذه الممارسة فيهم وحدهم. وكان الناس يسلمون لهم بهذه الدعوى، وإذا عاجهم عائب بالاستسلام المطلق للحاكم يقولون: نحن لا نفهم السياسة... ويقولهم هذا يوقعون صك الاعتراف بأن ليس لهم أن يناقشوا الحاكم في شيء ما.

هذا عن حال البلاد العربيّة في ظل الدولة العثمانيّة، وأما عن حال الغرب فقد قال عنها أعضاء الجمعيّات القوميّة العربيّة: قد تخلص الغرب من هذا العيب

(١) تعني الديمقراطيّة: حكم الشعب بالشعب. وهذه الكلمة جمع كلمتين: Demos ومعناها: الشعب. وkratos ومعناها: السلطة. أي: سلطة الشعب. انظر:

١. الديمقراطيّة-دوروثي بيكلس-١١-دار النهار-بيروت-١٩٧٢.

٢. مذاهب فكريّة معاصرة-محمد قطب-١٧٨.

الذي كان البشر المتحضرون كلهم مشتركين فيه... ويظهر أنه قد حان للشرق أن يمضي في المسائل السياسية والاجتماعية مشية أخيه^(١).

وتحقيق هدف الحكم الديمقراطي قد مر لدى أعضاء الجمعيات القومية العربية بمراحل قال عنها أعضاء الجمعيات القومية: كانت أولى مظاهر الفكرة القومية عند العرب المسلمين أمها، كانت فكرة ممتزجة باعتقاد ديني، ومرتبطة بغايات دينية، وقالوا: إن الإسلام أول شريعة اعترضت على الاستبداد وقاومته أشد المقاومة، وساوت بين أفراد الأمة ومهدت السبيل للحكومة الديمقراطية ووضعت حق الحاكمية في الأمة^(٢).

إلا أن الفكرة كما قال ساطع الحصري: لم تقف عند هذا الحد، بطبيعة الحال، لأن بعض — المنورين — أخذوا يفكرون في القومية العربية تفكيراً مستقلاً عن الاعتبار الدينية^(٣) حتى وصلوا إلى فكرة طريقة حكم البلاد العربية مع الدولة العثمانية، الذي يقول به فريق من رجالات الحركة العربية أن يكون على طريقة اتحاد المجر مع النمسة^(٤).

(١) المؤتمر العربي الأول-٣١. وانظر: عبدالرحمن الشهبندر-حياته وجهاده-حسن الحكيم-١١٠.

(٢) مجلة الهلال-الجزء الثاني-السنة ١٧-١١/١-١٩٠٨ (٧/١٠/١٣٢٦هـ)-ص: ٦٩.

(٣) محاضرات في نشو الفكرة القومية-ساطع الحصري-١٢٢.

(٤) مختارات قومية-محمد عزة دروزة-٥٠٧. وهي ما تسمى بـ(النظام الكونفدرالي، وتعريفه أنه نظام بمقتضاه يتكون اتحاد من دول مختلفة تكون كل منها مستقلة داخليا وخارجيا وتحفظ كل منها بالشخصية الدولية ولكن يحكمها هيئة واحدة، وتوجد علاقات دستورية بين أجزائها. انظر: السنظم السياسية والقانون الدستوري-فؤاد العطار-١٧٩-دار النهضة العربية-القاهرة-الطبعة الثانية-١٩٦٦. وكتاب الوجيز في النظم السياسية والقانون الدستوري-محمود حافظ-٤٦-دار النهضة العربية-القاهرة-الطبعة الثانية-١٩٧٦.

وكان من قرارات المؤتمر العربي الأول، المتعلق بهذا الهدف: أن الحكم الدستوري يقتضي أن تكون الأمة هي صاحبة النهي والأمر في شؤونها وأن تكون الهيئة الحاكمة وكيلة عن الأمة في إدارة تلك الشؤون.. ويقتضي اشتراك أبناء الأمة جميعاً في كل حق وفي كل واجب^(١).

وقد نقل أعضاء المؤتمر العربي الأول شعور العرب المهاجرين ورغبتهم بالحكم الديمقراطي، فقد قال أعضاء المؤتمر: لقد أدرك المهاجرون فوائد الحكومات الشعبية الدستورية وحفظ حقوق الأفراد، أدركوا معاني المدنية في أوروبا وأميركا.. فتمنوا لوطنهم العزيز الوصول إلى ما وصل إليه السوى بعد إراقة الدماء وهدم أبنية الظلم ودك معازل الجهل ويتمنون أن يقوم إخوانهم العرب العثمانيون بثورة أديبة تنهزم فيها جيوش الجهل وفيالق الظلمة ويخرج الأحرار المتنورون من معتركها وقد كتب لهم النصر^(٢).

وبعد موافقة أعضاء الجمعيات القومية العربية، على هذا المنهج الديمقراطي في الحكم، قسم أعضاء الجمعيات القومية القوي المؤثرة في تسيير الدولة العثمانية، وذكروا نصيب البلاد العربية من كل قوة، فمما قالوا عن القوة التشريعية: إن كل قانون لا يوضع بمشاركة أبناء العرب يكون غير مستوف الشروط من حيث الحق والعدل.. ونأبى أن يكون حظنا في تدبير أنفسنا موكولاً إلى رأي غيرنا.

(١) المؤتمر العربي الأول-١٠٠.

(٢) المؤتمر العربي الأول-٦٨.

وقالوا عن القوة الإجرائية (التنفيذية): إن حق الجماعات يتطلب من الأمة أن تؤلف الحكومة، وأن لا تتألف الحكومة إلا من الأمة، أما تأليف الوزارات في مملكتنا فقام على غير هذا الحق .. والوزارة في علم الحقوق العامة لا تكون وطنية إلا إذا مثلت كل أبناء الوطن، ولا تكون شرعية إلا إذا جمعت فيها إرادة المجتمع كله^(١).

ورغبة في إضفاء الصبغة الشرعية على هذا الهدف، قال عبدالغني العريسي — أحد أعضاء الجمعيات القومية العربية — وذلك أثناء الاحتفال بذكرى مولد الرسول ﷺ، الذي يقيمه المنتدى الأدبي: في مثل هذا اليوم يولد النبي العربي القرشي مقيم الأسس الديمقراطية.. حرية ومساواة وإخاء، مبادئ ثلاثة قام بها نبينا العظيم لخير هذه الأمة، كل ذلك على مبدأ الديمقراطية^(٢).

وحيثما أعلن الدستور في الدولة العثمانية، رأى أعضاء الجمعيات القومية العربية، أن هذا العهد هو عهد إقامة حكم ديمقراطي صحيح في البلاد، تسوده الحرية والمساواة في ظل العدل والنظام^(٣).

وقد أكد نائب الحزب اللامركزي، في أثناء جلسات المؤتمر العربي، بأن الجمعيات القومية العربية: تريد حكومة عثمانية لا تركية ولا عربية حكومة يتساوى فيها جميع العثمانيين في الحقوق والواجبات فلا يستأثر فريق بحق من

(١) المصدر السابق نفسه-٤٥-٤٩.

(٢) مختارات المفيد-العدد ٩١٩ بتاريخ ٢٩/شباط/١٩١٢. ص: ٧٢.

(٣) مذكراتي على هامش القضية العربية-أسعد داغر-٤٧.

الحقوق ولا يحرم فريق من حق من الحقوق لا بداعي الجنس ولا بداعي الدين عربياً كان أو تركياً.. مسلماً أو مسيحياً إسرائيلياً أو درزياً.. هذه هي قاعدتنا السياسية الجامعة^(١).

(١) المؤتمر العربي الأول-١٠٤.